

جهود صلاح الدين الأيوبي في إحياء المذهب السني في مصر والشام (٥٦٤هـ-٥٨٩هـ/١١٦٩م-١١٧٢م)

محمد الرحيل غرايبة

قسم الشريعة، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن

تاريخ تقديم البحث ١٩٩٤/٦/٤

تاريخ قبوله للنشر ١٩٩٥/٢/٢٥

ABSTRACT

This study sheds light on the efforts of Salahdin to weaken the Shiite sect and instead to revive the Sunni faith in its jurisprudence in Islam, creed or belief in Egypt and Syria through founding schools that would teach the Sunni faith and to make judgment or court ruling according to the latter and also through paying more attention to the fuqha (legist jurisprudent) and also through waging war on philosophers and innovators in religious matters.

ملخص

تكشف هذه الدراسة عن جهود صلاح الدين الأيوبي في إضعاف المذهب الشيعي، وإحياء المذهب السني فقهاً وعقيدة في مصر وبلاد الشام، عن طريق إنشاء المدارس التي درّست المذهب السني، وجعل القضاء بموجب المذهب الشافعي وعن طريق تقريب الفقهاء والاهتمام بهم، وعن طريق محاربة الفلاسفة والمبتدعين في أمور الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لما كانت الأبحاث والدراسات حول صلاح الدين الأيوبي (ت: ٥٨٩/١١٩٣م) كثيرة ومتنوعة، رأيت أن أبحث عن موضوع، لم يتناوله الباحثون، أو لم يوفوه حقه من البحث والتحقيق. وبما أن الجانب العسكري لديه، قد أُشيع بحثاً باعتباره صانع مجد هذه الأمة خلال فترة الحروب الصليبية. رأيت أن أتجه إلى أحد الجوانب الأخرى المهمة في حياته. ولما كان هو الذي أزال الخلافة الفاطمية الشيعية من الوجود نهائياً، وأن المذهب الشيعي في عهده قد وهن وهناً شديداً، بسرعة لافتة للنظر، مما يستدعي الوقوف على السر الذي يكمن وراء هذا الضعف. لذلك عمدت إلى الكتابة حول هذا الموضوع، محاولاً سدّ فجوة في الدراسات التي تناولت سيرة صلاح الدين.

وفي هذا البحث، أشرت بإيجاز إلى الأسباب التي حدت بصلاح الدين إلى أن يشن حملته على الفاطميين، وألقيت بعض الضوء على جهوده السياسية (السلمية) في نشر المذهب السني، والتي تمثلت في إكثاره من إنشاء المدارس التي تُدرّس فقه مذهب أهل السنة، وعزله القضاة الشيعيين، واستبدالهم بقضاة سنيين، واهتمامه بالعلماء والفقهاء وتقريبهم إليه. وقمت بتفنيد التهمة التي نسبت إليه، بأنه كان سبباً في جمود الفكر الإسلامي بقتله الفيلسوف يحيى السُّهْرَوْرْدِي (ت: ٥٨٧هـ/١١٩١م)، وأومأت بإيجاز إلى أثره في تنشيط المذهب السني في حاضرة الخلافة العباسية.

وجاءت الدراسة موزعة في مجموعة مباحث هي:

- ١- أسباب محاربة المذهب الشيعي.
- ٢- المدارس التي أنشئت في عهد صلاح الدين.
- ٣- القضاء .
- ٤- الاهتمام بالفقهاء.
- ٥- بغض صلاح الدين للفلسفة.
- ٦- دور صلاح الدين في تنشيط المذهب السني في بغداد.

بالإضافة إلى خاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.
ولا أزعـم أن هذا البحث جاء كاملاً خالياً من الهفوات والنقص، فالكمال لله وحده.
وأسال الله سبحانه أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم.

أسباب محاربة المذهب الشيعي:

عمل الخلفاء الفاطميون ودعاتهم في مصر والبلاد التي حكموها، بشكل نشيط على نشر المذهب الشيعي، عن طريق بذل الأموال، وجعل القضاء على مذهبهم الذي يدينون به. لذلك نهض المذهب الشيعي نهضة كبيرة، وبالمقابل فقد ضعف نفوذ المذهب السني، الذي كان سائداً في مصر وغيرها من البلاد التي خضعت للفاطمين.

ولما اعتلى صلاح الدين كرسى الحكم في مصر، سرعان ما عمل على إنهاء الخلافة الفاطمية، «وبذلك عادت إلى مصر السلطة الروحية للخليفة العباسي» (١)، كما عمل على تقوية المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، المذهب الرسمي للفاطمين، مستعملاً في ذلك أساليب متنوعة، منها ما هو عسكري، ومنها ما هو سياسي.

أما أسلوبه العسكري فتمثل في قمعه للحركات وللمؤامرات التي استهدفت القضاء عليه وعلى أنصاره، وإعادة الخلافة الفاطمية، مثل: حركة مؤتمن الخلافة (٢)، ومؤامرة عمارة اليمن (٣)، وثورة الكنز (٤).

وأما أساليب صلاح الدين السياسية (السلمية) في محاربة التشيع، فتمثلت في أنه أتجه إلى عقول الناس، فعمل على إنشاء المدارس الفقهية التي تدرّس مذاهب أهل السنة، ولا سيما المذهب الشافعي، وجعل القضاء على المذهب السني، واهتم اهتماماً كبيراً بالفقهاء.

لماذا قام صلاح الدين بمحاربة المذهب الشيعي؟

يمكننا إرجاع إقدام صلاح الدين على محاربة المذهب الشيعي إلى الأسباب التالية:

- أنه وجد في الشيعة منافساً قوياً له، حيث أعلنوا مراراً مطالبتهم وأحقيتهم بالحكم من صلاح الدين لكونه كُردياً من ناحية، وأنه ليس عربياً مصرياً من ناحية أخرى، ومن ناحية ثالثة فهو لا يدين بمذهبهم، وسبق أن أشرنا إلى أهم الحركات التي قاموا بها ضده.
- إن صلاح الدين عدّ نفسه حامي الخلافة العباسية والمدافع عنها، لذلك أعطى نفسه الحق في قمع حركات الشيعة بشدة، حيث عدّهم خارجين وبعيدين عن مذهب الخلافة العباسية عقيدة وفقهاً، فقد أرسل الخليفة العباسي المستجد (ت: ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، إلى نور الدين زنكي (ت: ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) - سيد صلاح الدين - أن يسقط الخلافة الفاطمية، الذي قام بدوره بالكتابة إلى صلاح الدين يأمره أن يُنهي الخلافة الفاطمية (٥)، ويُرجع مصر إلى حضيرة الخلافة العباسية، فقام صلاح الدين بالقضاء على الخلافة الفاطمية ومذهبها.

- ثبت وبشكل قاطع تحالف بعض الخلفاء الفاطميين ووزرائهم مع الصليبيين (٦)، ضد صلاح الدين، ومن قبله ضد نور الدين محمود، لذلك وجد فيهم عقبة كأداء في سبيل تحرير الأراضي الإسلامية التي اغتصبها الصليبيون.

وفيما يلي نعرض بإيجاز لأساليب صلاح الدين السلمية التي اتبعها في سبيل محاربة المذهب الشيعي:

المدارس :

لم يعرف العالم الإسلامي المدرسة قبل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وكانت أول مدرسة بُنيت في ديار الإسلام هي المدرسة البيهقية في نيسابور، ثم المدرسة النظامية في بغداد، ثم أخذت المدارس تنتشر في العراق وخراسان وغيرها من البلدان الإسلامية (٧).

وعندما ملك صلاح الدين مصر، «لم يكن بها شيء من المدارس» (٨)، فقام ببناء عدة مدارس للشافعية والمالكية، مقتدياً بالملك العادل نور الدين محمود زنكي، الذي بنى عدة مدارس في بلاد الشام للحنفية والشافعية (٩)، وقد تأسى بصلاح الدين في إقامة المدارس في مصر والشام أقرباؤه وأمرأؤه والأغنياء من الفقهاء وغيرهم.

وقد مهّدت هذه المدارس الطريق أمام طلاب العلم لينهلوا من معين العلوم الشرعية والعربية وغيرها بأيسر جهد، وأقصر وقت، وأقل التكاليف، وأصبح طالب العلم غير محتاج إلى أن ينتقل من بلد إلى آخر يبحث عن المدرسين بل صار المدرسون هم الذين يأتون إليه في المدرسة.

وقد جعلت هذه المدارس من عهد صلاح الدين عهداً مشرقاً سواء في مصر أو بلاد الشام، إذ أصبح محور استقطاب العلماء من جميع البلدان الإسلامية، لما كان يلاقيه الفقهاء من كَرِيم العناية والرعاية، ولما كان يقدّره صلاح الدين عليهم من إعطيات ومنح كثيرة، فقد بلغت المرتبات للفقهاء والمدرسين بدمشق في عهده حوالي ثلاثمائة ألف دينار، وكان عددهم حوالي ستمائة مدرس وفقهه (١٠).

ولكي يضمن صلاح الدين دخلاً ثابتاً للمدارس التي يُنشئها، كان يوقف عليها أوقافاً تكفي للإنفاق على الفقهاء (المدرسين) والدارسين (١١). كما هُيئت لهذه المدارس كل أسباب الراحة ووسائل العيش، ليتفرغ الدارسون والمدرسون تفرغاً كاملاً للعلم.

وقد هدف صلاح الدين من إنشاء المدارس التي شيّدها إلى مقاومة المذهب الشيعي، عن طريق تعليم فقه أهل السنة، ولا سيما مذهبه الذي كان يعتقده وهو المذهب الشافعي، بالإضافة إلى أنها كانت مراكز لتثقيف الناس وتعليمهم لغتهم وأمور دينهم، وتبصيرهم بما يُحقيق بهم من مخاطر تهدد وجودهم، فعملت على إثارة روح الجهاد في الناس، مما جعلهم

يلتفون حول زعيمهم، مما مكنه من تحقيق انتصارات باهرة على الصليبيين، حيث تمكن من فتح أغلب معاقل الصليبيين التي كانت منفوسة في بلاد الشام.

والمدارس التي بناها صلاح الدين في مصر هي:

المدرسة الناصرية: بناها صلاح الدين في مصر (الفسطاط) سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م مكان سجن المعونة، وكان في ذلك الوقت وزيراً، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي (١٢).

المدرسة القمحية: بناها صلاح الدين في أثناء وزارته، وجعل الدراسة فيها على المذهب المالكي (١٣).

المدرسة الصلاحية: أنشأها صلاح الدين بعد أن انفرد بحكم مصر، بجوار قبر الشافعي بالقرافة، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي، وأول من درس بها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني (ت: ٥٨٧هـ/ ١١٩١م) (١٤)، وجعل له في كل شهر أربعين ديناراً عن التدريس، وعشرة دنائير عن النظر في أوقاف المدرسة، ورتب له من الخبز في كل يوم ووقف ستين رطلاً، وروايتين من ماء النيل، ووقف عليها حماماً بجوارها، وحوانيت بظاهرها، وجعل فيها معيدين (١٥).

المدرسة السيفية: أسسها صلاح الدين بعد أن أصبح ملكاً لمصر، وجعل التدريس فيها على المذهب الحنفي، وعين للتدريس فيها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجيني، ورتب له في كل شهر أحد عشر ديناراً، وباقي ريع وقفها، يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده، على قدر طبقاتهم (١٦).

أما المدارس التي بناها في بلاد الشام أو أمر بتجديد عمارتها فهي:

المدرسة الصلاحية: بناها صلاح الدين في دمشق، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي (١٧).

المدرسة الكلاسة: بُنيت في زمن نور الدين محمود زنكي، وأمر صلاح الدين بتجديد عمارتها سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م (١٨).

المدرسة الغزالية: أسست في عهد نور الدين محمود زنكي، وأهتم صلاح الدين بإصلاحها، وجعل قرية (حزم) من أعمال حوران وقفاً عليها، وعلى المشتغلين بها من العلوم الشرعية، وجعل النظر والتدريس فيها لقطب الدين مسعود النيسابوري الشافعي (ت: ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) (١٩).

وفي سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م أمر ببناء مدرسة في الاسكندرية، خلال زيارته لها (٢٠). كما أمر ببناء مدرسة كبيرة في الموصل (٢١).

المدرسة الصلاحية: أنشأها صلاح الدين في مدينة القدس سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وجعل

التدريس فيها على المذهب الشافعي، وجعلها وقفاً على أهل العلم (٢٢)، ولحد الآن يوجد كتاب وقفها منقوشاً على حجر كبير وُضع على باب المدرسة، ونصها كالآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم، وما بكم من نعمة فمن الله، هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين، أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي محيي دولة أمير المؤمنين، أعز الله أنصاره، وجمع له بين خير الدنيا والآخرة، على الفقهاء من أصحاب أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، سنة ثمان وثمانين وخمسائة» (٢٣).

وهذه المدارس التي شيد صرحها صلاح الدين، لا نجد شيئاً منها منسوباً إليه في الظاهر، وإنما تتسبب لجهات أخرى، : كأن تتسبب إلى الفقيه الذي درّس بها، أو إلى المكان الذي توجد فيه، أو غير ذلك، وهذا كما يقول ابن تغري بردي «صدقة السر على الحقيقة» (٢٤).

مدرسة دار الغزل: جعلها صلاح الدين للمالكية، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة (٢٥).

وإلى جانب المدارس، شيد صلاح الدين أيضاً الجوامع الكثيرة والخانات الصوفية، ولا يخفى أن هذه الأمكنة كان يُعقد فيها حلقات دروس في الفقه ومختلف العلوم الشرعية.

ومن المدارس التي أسست في عهده والتي بناها غيره من أفراد الشعب نذكر :

المدرسة الإقبالية: أنشأها خادم صلاح الدين جمال الدين بن جمال الدولة، وقسمها إلى قسمين أحدهما للشافعية والآخر للحنفية (٢٦).

مدرسة منازل العز: كانت في الأصل داراً تابعة للقصر الفاطمي في القاهرة، اشتراها الأمير تقي الدين بن عمر شاهنشاه بن أيوب، ابن أخي صلاح الدين، وجعلها مدرسة للشافعية سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م (٢٧). كما بنى هذا الأمير في دمشق المدرسة التقوية (٢٨). وأنشأ مدرستين بالفيوم للشافعية والمالكية كما بنى مدرسة فخمة في حماة (٢٩).

المدرسة العادلية: عمّرها أخو صلاح الدين العادل أبو بكر أيوب، في القاهرة (٣٠)، وكان بناؤها متقناً محكماً لا نظير له في بنيان المدارس (٣١).

المدرسة الشامية: بنتها أخت صلاح الدين ست الشام في دمشق، وهي من مدارس الشافعية (٣٢).

مدرسة الصاحبة: بنتها ربيعة خاتون في دمشق للحنابلة (٣٣).

المدرسة الأزكشية: بناها الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدي، أحد أمراء صلاح الدين، وجعلها وقفاً على الفقهاء من الحنفية (٣٤).

المدرسة العاشورية: كانت داراً لليهودي ابن جُميع الطبيب كاتب الأمير بهاء الدين قراقوش، فاشتريتها منه الست عاشوراء بنت ساروح الأسدي زوجة الأمير أيازكوج الأسدي، ووقفتها على الحنفية، وكانت من الدور الحسنة (٣٥).

المدرسة الفاضلية: بناها القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيسانى (ت: ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، ووقفها على الشافعية والمالكية، ووقف بها ما يقارب مائة ألف كتاب (٣٦).

المدرسة العسرونية: أنشأها قاضي القضاة الفقيه شرف الدين أبو سعيد عبدالله بن محمد بن أبي عسرون (ت: ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) (٣٧).

المدرسة القطبية: بناها قطب الدين خسرو بن بلبل بن شجاع الهدباني في سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية (٣٨).

المدرسة الارسوقية: بناها التاجر عفيف الدين عبدالله بن محمد الارسوقي (ت: ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) في سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م (٣٩).

والملاحظ في عهد صلاح الدين الأيوبي، أن الجامع الأزهر الذي بناه الفاطميون ليكون مركزاً لنشر عقائد الشيعة، لم يعد يحتل المرتبة الأولى بين مراكز العلم، بل أصبح في المرتبة الثانية من الأهمية (٤٠)، ويرجع ذلك إلى المدارس الكثيرة التي أحدثها صلاح الدين، ثم إلى نقله خطبة الجمعة من الأزهر إلى الجامع الحاكمي، وبقيت الخطبة معطلة بالجامع الأزهر إلى عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (ت: ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) (٤١).

ولا شك في أن هذا العدد الهائل من المدارس، خلال المدة البسيطة التي حكم بها صلاح الدين والتي تقارب العشرين عاماً، إن دلّ على شيء فإنما يدل على اهتمامه الكبير بالعلم والعلماء، وليس غريباً عليه أن يصدر عنه هذا الاهتمام، إذا عرفنا أنه كان فقيهاً في المذهب الشافعي «فكان يحفظ القرآن، وكتاب التنبية في الفقه الشافعي» (٤٢)، وكان يكثر من مجالسة العلماء، والاستماع إليهم، ومناقشتهم، كما سيتضح لنا فيما بعد.

وتجدر الإشارة، إلى أن اهتمام صلاح الدين بإنشاء الخانقات الصوفية بكثرة، يؤكد لنا ما ذكرته بعض المصادر التاريخية أن صلاح الدين كان عنده نزعة صوفية. يقول السيوطي: «ذكر اليافعي في روض الرياحين، أن السلطان صلاح الدين كان من الأولياء الثلاثمائة» (٤٣)، كما أن المصادر التاريخية تجمع على أنه كان زاهداً.

وصلاح الدين بتشجيعه صروح العلم، أضاف إلى سجله الحافل بالانتصارات العسكرية على أعداء الإسلام، سجلاً آخر لا يقل أهمية عن السجل الأول، خلد ذكره وهو بعث المذهب السني من جديد في مصر والشام والحجاز، بل وفي العراق، بعد أن كان من المحتمل أن يتلاشى، لو قدر للدولة الفاطمية أن يمدّ في عمرها.

إن صلاح الدين في إنشائه المدارس، لم يفرق بين مذهب وآخر، ولا بين الفقهاء، بل أنشأ مدارس لجميع المذاهب السنية، وبذلك عمل على استبعاد العصبية المذهبية وأشاد سياسة

تقوم على استقطاب جميع أهل السنة من أجل صُنع جبهة موحّدة، ليقوى بها على محاربة أعدائه.

القضاء :

منذ اللحظة الأولى لتسلم صلاح الدين الوزارة في مصر، كان في نيته القضاء على الخلافة الفاطمية، وإحلال مذهب أهل السنة مكان المذهب الشيعي، فكان أول عمل قام به هو «تحسين موقع الإسلام السني» (٤٤)، وذلك بعزل جميع القضاة الشيعيين من مناصبهم، واستبدالهم بقضاة سنيين، من أتباع المذهب الشافعي (٤٥).

فقام سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، بإسناد قضاء مصر إلى الفقيه الشافعي صدر الدين عبد الملك ابن درباس الكردي (ت: ٦٠٥هـ/ ١٢٠٩م) (٤٦)، وعهد إليه باستنابة قضاة عنه في البلدان المصرية، يدل ذلك على أنه كان بمنزلة قاضي قضاة، ولا شك أن تنصيب قاضي قضاة سني، مع وجود الخليفة الفاطمي «إجراء له دلالة سياسية الواضحة» (٤٧).

وقد قام ابن درباس بتنفيذ ما أسند إليه من مهام وأثبت جدارة في عمله، فقام بنقل خطبة الجمعة من الأزهر إلى المسجد الحاكمي، كما قام بإسناد مناصب القضاء في المدن المصرية إلى فقهاء من الشافعية أسهموا بدورهم في نشر المذهب الشافعي، وبذلك «استعاد المذهب السني قوته»، وأدّى ذلك إلى ضعف المذهب الشيعي، وأخذ نجمه بالأفول عن سماء مصر حتى وقتنا الحاضر.

وعندما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٣م، بعد وفاة نور الدين زنكي، أبقى على قضائها كمال الدين محمد بن عبدالله الشهرزوري (ت: ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)، رغم ما كان بينهما من عداوة، عندما كان صلاح الدين في دمشق، قبل قدومه إلى مصر. وبعد وفاة الشهرزوري، أسند صلاح الدين قضاء دمشق إلى الفقيه شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون (ت: ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) (٤٨).

وكان صلاح الدين كلما فتح بلداً يولّي عليه قاضياً من أتباع المذهب الشافعي، وآخر من عيّن من القضاة قبل موته، هو القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعي، الذي عيّنه قاضياً على مدينة القدس وكان ذلك في سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) (٤٩).

وتجدر الإشارة إلى أن صلاح الدين، قد جعل قضاة مهمتهم، النظر في المنازعات والخصومات التي تقع بين أفراد الجيش، وأطلق عليهم قضاة الجند أو قضاة العسكر، ومن أشهر هؤلاء القضاة، القاضي بهاء الدين بن شدّاد، والقاضي شمس الدين محمد بن موسى، المعروف بابن الفراش (٥٠).

ولاهتمامه بمذاهب أهل السنة، ولاسيما المذهب الشافعي، جعل القضاة والمدرسين في

المدارس ممن يتبعونه، فلا غرابة إذن، أن يشيع المذهب الشافعي، وتصبح له الصدارة بين بقية مذاهب أهل السنة، وأدى ذلك إلى انحطاط منزلة المذهب الشيعي واندراسه، وانمحاء أثره، ولم يجزؤ أحد من أهل البلاد على إعلان تشييعه (٥١).

وصلاح الدين بجعله القضاء على المذهب الشافعي بدل المذهب الشيعي يعتبر عمله هذا «كمن قام بانقلاب سريع لإجراء تغيير مذهبي، ولكنه لم يكن عنيفاً أو دمويّاً» (٥٢).

الاهتمام بالفقهاء:

القائد الناجح لا يقتصر نجاحه فقط على الوصول إلى كرسي الحكم، وإنما يتمثل نجاحه الحقيقي في قدرته على اختيار رجاله ومعاونيه، الذين يعتمد عليهم، في تسييره لأمر الدولة في مختلف المجالات من عسكرية، وسياسية، وإدارية، وغيرها. ومن هؤلاء الرجال الذين اعتمد عليهم صلاح الدين، الفقهاء الذين شغلوا أعلى المناصب في الدولة، فكان منهم الأمير في الجيش، وكاتب الديوان، والقاضي، والمحاسب، والمدرس، والخطيب.

وإذا كان صلاح الدين، قد حارب خصومه في الداخل والخارج بالسيف وغيره من أدوات القتال، فإن الفقهاء حاربوا الأعداء بأقلامهم وألسنتهم، عن طريق عملهم في القضاء، وتدريسهم في المدارس، ووعظهم الناس في المساجد والخانقات، فأدوا دوراً هاماً في كشف زيف وبطلان مذهب الفاطميين، وفي إذكاء روح الجهاد في نفوس الجماهير، مما جعلهم يداً واحدة حول صلاح الدين، فمكّنه ذلك من تحقيق انتصاراته الخالدة على الصليبيين.

وفي بداية تسلم صلاح الدين للوزارة من قبل الخليفة الفاطمي العاضد (ت: ٥٦٧هـ/ ١١٧١م)، أدّى الفقهاء وعلى رأسهم الفقيه عيسى الهكاري (ت: ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) دوراً كبيراً في اقناع كبار الأمراء المعارضين لتولية صلاح الدين، أن يدخلوا في طاعته (٥٣)، وكان لهذا الدور الأثر الكبير في تثبيت قدم صلاح الدين في الحكم.

كما كان للفقيه زين الدين بن النجا (ت: ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) أيضاً، دوراً مهماً في ترسيخ ملك صلاح الدين في مصر، حيث يعود الفضل إليه في كشف المؤامرة الكبيرة التي تزعمها عمارة اليمني (ت: ٥٦٩هـ/ ١١٧م)، والتي استهدفت قتل صلاح الدين وأنصاره، وإعادة الدولة الفاطمية بالتعاون مع الصليبيين والحشيشية الإسماعيلية في الشام (٥٤).

فلا غرابة إذن، أن يولي صلاح الدين الفقهاء اهتماماً كبيراً، وأن يجعلهم موضع رعايته وعنايته، فحفظ لهم جميلهم، ووثق بهم، وقربهم إليه .

ولكن ليس هذا هو السبب المباشر لذلك الاهتمام، وإنما يرجع السبب إلى أن صلاح الدين نفسه كان لديه إطلاع واسع على الفقه الشافعي، حيث كان يحفظ كتاب التتبيه، بالإضافة إلى أنه كان متديناً ورعاً، تقياً، زاهداً، محافظاً على تأدية صلاة الجماعة في وقتها (٥٥)، إلى غير

ذلك من الصفات الحسنة التي رُبِّي عليها. ويجب أن لا ننس، أنه أدرك الدور الخطير الذي يمكن أن يقوم به الفقهاء من حيث قدرتهم على كسب الرأي العام وتحريكه نحو الجهة التي يريدها.

وإدراكاً منه لدور الفقهاء الهام في المجتمع، اهتم بهم اهتماماً كبيراً، وأفاض عليهم من نعمه وإحسانه، وأغدق عليهم الهبات والأعطيات، يدل على ذلك أن العلماء في دولته، كان لهم إقطاعات، وراتب يقارب الثلاثمائة ألف دينار(٥٦).

كما قام بتقريب الفقهاء إليه فأحضرهم مجالسه، وكان يحسن الاستماع إليهم ويناقشهم في كثير من المسائل(٥٧)، وليس هذا بالأمر المستغرب إذا عرفنا أنه كان ذا ثقافة دينية واسعة، حيث حفظ القرآن الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية، بالإضافة إلى معرفته الواسعة بالمذهب الشافعي.

ومن مظاهر اهتمام صلاح الدين بالفقهاء أيضاً، أنه كان كثير الاستشارة لكبارهم، فكان لا يقطع أمراً إلا بعد أخذ رأيهم فيه. ويأتي في طليعة كبار العلماء الذين كان يستشيرهم: كاتب ديوانه القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني (ت: ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م). يقول فيه صلاح الدين: «لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل»(٥٨)، ويقول أبو شامة في استشارة صلاح الدين الدائمة للقاضي الفاضل: «... وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه»(٥٩).

وبلغ من اعتماد صلاح الدين على رأي القاضي الفاضل أنه في سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، عندما نوى تأدية فريضة الحج، استشار القاضي الفاضل، فأشار عليه بعدم الخروج للحج خوفاً من رجوع الصليبيين إلى القدس، وكان صلاح الدين قد حررها من أيديهم(٦٠)، وبالفعل، فقد أخذ برأي القاضي الفاضل ولم يحج.

ومن بين العلماء الذين أكثر صلاح الدين من استشارتهم: الفقيه زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا، الذي كان له الفضل -كما أشرنا- في كشف مؤامرة عمارة اليمني، فقد جعله صلاح الدين من كبار مستشاريه، وكان يُسمّيه: عمرو بن العاص، بسبب دهائه وحسن حيلته، وكان كثيراً ما يأخذ برأيه لسداده(٦١). ويقول فيه أبو شامة (ت: ٥٦٥هـ/ ١١٦٦م): «كان للفقيه زين الدين بن نجا، منزلة عالية عند صلاح الدين، أحسن السلطان إليه بالأعطيات والإقطاعات، وكان السلطان يستشير، ويروقه تدييره، ويميل إليه لتقديم معرفته، وكريم سجيته»(٦٢).

ومنهم أيضاً: الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد الهكاري، الذي كان له الفضل -كما أشرنا- في إقناع كبار الأمراء المعارضين لتولية صلاح الدين الوزارة، في الدخول في طاعته، وكان لهذا الدور الأثر الكبير في تثبيت مركز صلاح الدين، حيث جاء في الساعات الأولى لتولي صلاح الدين الوزارة. ويبدو أن صلاح الدين لم ينس له هذا الجميل، لذلك قرّبه إليه،

وأكرمه إكراماً كبيراً وكان كثير الاستشارة له (٦٣).

وبلغ من اهتمام صلاح الدين بالفقهاء أنه كان شديد الحرص على حضور دروس الفقهاء الوعظية، وكان في كثير من الأحيان يصحب أبناءه معه لسماعها، ولا سيما دروس الفقيه الزاهد زين الدين بن نجا (٦٤)، ودروس الشيخ أبو الفتوح عبدالسلام بن يوسف التتوخي (٦٥)، كما حرص صلاح الدين على حضور مجالس المحدثين، يقول أبو شامة: «وكان يسمع الحديث بقراءة الإمام تاج الدين البندهي المسعودي» (٦٦)، وفي أثناء زيارته للاسكندرية سمع (الموطأ) على العالم أبي طاهر أحمد بن محمد السكفي (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) (٦٧).

ومما يدل على اهتمام صلاح الدين بالفقهاء، أنه كان يقوم بزيارتهم في بيوتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها: أنه عندما قدم إلى دمشق سنة (٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، قام بزيارة القاضي كمال الدين محمد بن عبدالله الشهرزوري (ت: ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م) في منزله، وأزال ما كان بينهما من سوء تفاهم قديم يرجع إلى أثناء إقامة صلاح الدين في دمشق قبل رحيله إلى مصر، وقام بتثبيته قاضياً لدمشق ونواحيها (٦٨)، ومن جملة الحديث الذي دار بينهما خلال تلك الزيارة، قول صلاح الدين للقاضي الشهرزوري: «... ما مشيت إلا لأزيل ما في خاطرك من الوهم، وأعرّك أن ما في قلبي لك نكرة، فطَبْ نفساً، وقرّ عيناً، فالأمر أمرك، والبلد بلدك» (٦٩).

ولعمري هذه هي أخلاق العظماء من بني البشر، يحلمون عند المقدرة، بل ويتبعون الحلم الإحسان، وبذلك يجعلون من ألدّ الأعداء أصدقاء مخلصين، وهذه الحادثة إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن صلاح الدين كان ذا نفسية صافية لا تعرف الحقد ولا البغض ولا الكراهية، وأن قلبه كان عامراً بالإيمان والتقوى وخشية الله سبحانه.

و في سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، عندما ترك صلاح الدين (حلب)، سار إلى المعرة، وهناك قام بزيارة للفقيه الزاهد أبي زكريا المغربي في بيته (٧٠).

ولشدة ثقة صلاح الدين بالفقهاء، كان يتخير رسله ومبعوثيه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والأمراء من الفقهاء، ممن اشتهر بسعة العلم، وحصافة الرأي، فقد قام صلاح الدين بارسال وفد برئاسة الفقيه شمس الدين بن أبي المضاء إلى الخليفة العباسي المستضيء بنور الله (ت: ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م)، وحمّله رسالة تتضمن إعلام الخليفة العباسي بعودة الخطبة باسمه في مصر، وفيها أيضاً يلتبس من الخليفة أن يُقلده البلاد التي يحكمها وكل ما يفتحه من بلاد (٧١)، وقد نجح ابن أبي المضاء في مهمته، وترتب على هذه المهمة أن قام الخليفة بارسال الخلع العباسية إلى صلاح الدين، وكتاب تقليد له بالبلاد التي يحكمها.

كما أرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى الملك العادل نور الدين محمود زنكي، وحمّله رسالة، يعتذر فيها لنور الدين عن تركه لمحاصرة قلعة الكرك (٧٢)، وقد نجح الهكاري في مهمته، حيث

أن نور الدين زال ما في نفسه، من شكوك وظنون ساورته حول إخلاص صلاح الدين له. ومما يدلنا أيضاً، على تقدير صلاح الدين للفقهاء وحبّه لهم، أنه كان عندما يدخل الفقيه إلى مجلسه يستقبله أجمل استقبال، ويجلسه إلى جانبه، كأنه أعزّ الناس إليه (٧٣). وصلاح الدين، في الهبات والأعطيات الكثيرة التي كان يمنحها الفقهاء، كان يرى أن ذلك حق لهم في بيت المال، وليس منة منه. يقول: «إن هؤلاء - الفقهاء - لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعض، فلهم المنة علينا» (٧٤).

وأخيراً، فالفقهاء أحبّوه كما أحبّهم، ووقفوا إلى جانبه، ونصروه ولم يخذلوه، وبلغ من درجة حبهم له، أنه عندما مات، أرادوا أن يحملوه على أعناقهم (٧٥).

والتقى صلاح السلطان مع صلاح العلماء، فكان صلاح المجتمع، وكانت الانتصارات الخالدة، التي تزهو بها أجيال المسلمين على مرّ العصور. فهل نعتبر؟

بغضه للفلسفة :

ومع كل هذا الاهتمام والتقدير للفقهاء، إلا أنه كان لا يُمكن أحداً منهم من إظهار ما يخالف مذهب أهل السنة، ولا سيما في أمور العقيدة، ويصفه أبو شامة بأنه «كان مبغضاً للفلاسفة والمعتلة والدهرية، ومن يعاند الشريعة» (٧٦).

وخير دليل على بغضه وكرهيته للفلسفة والمنتسبين إليها، وأنه كان يؤدّب أصحاب البدع وأهل الزندقة، أنه في عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م أوعز إلى ابنه الملك الظاهر غازي (ت ٦١٢هـ/ ١٢٠٧م) حاكم حلب، بقتل العالم والفيلسوف أبي الفتح يحيى بن حبش السهروردي (ت ٥٨٧هـ/ ١١٩١م) (❖)، وذلك بعد أن أقتعه الفقهاء بضرورة التخلص منه، وإفتائهم بإباحة دمه، خوفاً على المسلمين من أن يُفسد عليهم عقيدتهم بآرائه الفلسفية التي تمس الذات الألهية، ومنعاً لحصول الفتن (٧٧).

ويحلّو لبعض المفكرين المعاصرين (٧٨)، أن يُصوّر مقتل السهروردي، أنه أحد أخطاء صلاح الدين الفادحة التي لا تغتفر، والتي جنت على الفكر الاسلامي جناية كبيرة، فأماتت فيه روح التفكير، فضعف مستوى العقل واعتراه الجمود، وسيطرت عليه الأوهام.

إن هذا الزعم فيه تجنّ واضح على صلاح الدين، الذي لم يُقدم على الأمر بقتل السهروردي، إلا بعد أن أفتى جميع فقهاء حلب بوجوب قتله. وذلك لأنه في فلسفته مزج بين الحكمة اليونانية وديانات الفرس من مزدكية ومانيوية ومذاهب الصابئة في الكواكب والنجوم. كما كان يعتقد بأن النبوة لا تنتهي، وأنها ضرورية من وقت لآخر، فهو ينكر أن يكون محمد (ص) خاتم النبيين (٧٩). كما يرى أن الولي المتأله (الإمام) الذي اجتمعت له الحكمة البحثية والتجربة الصوفية يكون خير وأفضل من النبي (٨٠). بالإضافة إلى ذلك، كان يقول: إن

الله يملك إن شاء إن يخلق نبياً، وسمي نفسه المؤيد بالملكوت (٨١).

لذلك رماه فقهاء حلب بالزندقة والإلحاد، وكتبوا إلى صلاح الدين، وحذروه من فساد عقائد الناس إذا أبقى عليه. فما كان من صلاح الدين، بعد أن ثبت لديه كفر السهروردي، إلا أن كتب كتاباً إلى ابنه الظاهر يأمره فيه بقتل السهرودي.

ثم إنه لو لم يقتله لحدث فتنة كبيرة، بين أنصار السهروردي وخصومه ممن يعتنقون مذهب أهل السنة عقيدة وفقهاً، تؤدي إلى إزهاق أرواح كثيرة، فينعكس أثر هذه الفتنة على تماسك الجبهة الداخلية، التي كان صلاح الدين حريصاً أشد الحرص، على أن تبقى قوية ومتماسكة، وموحدة، لتحقيق أسمى أمنياته، وأمنيات المسلمين، بطرد الصليبيين من بلاد الشام، الذين شكلوا أكبر خطر هدد الإسلام والمسلمين في ذلك الوقت.

ولا مجال في مثل هذه الظروف الصعبة والقاسية، لافساح المجال أمام المناقشات الفلسفية التي تؤدي إلى تشويش الأفكار وتشتتها (٨٢).

ولاشك في أن صلاح الدين قد رأى في التخلص من السهروردي، تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وهذا أمر يتحتم العمل به، فلأن تزهق روح واحدة أولى من أن تزهق أرواح كثيرة، وأولى من أن يمس الدين بسوء، وتتعطل أحكامه. وأي حاكم كان مكانه لا بد أن يفعل مثله.

وربما كان وراء الدافع لقتل السهروردي، هو أن صلاح الدين خشي على ولده غازي، أن يُفتن بأفكار وآراء السهروردي، وهذا لو تم، فإنه لاشك، سيؤدي إلى حدوث انقسام في البيت الأيوبي، وهذا مما لا يسمح به صلاح الدين، لما يترتب عليه من أخطار، تؤدي إلى ضياع الجهود التي بذلها من أجل بناء مملكة موحدة وقوية.

يضاف إلى ذلك أن السهروردي في فلسفته كان متأثراً بالمذهب الإسماعيلي الذي يقول أن أولاد علي بن أبي طالب هم صور للتجلي الإلهي، لذلك اعتبره صلاح الدين تائراً سياسياً يسعى للقضاء على حكمه (٨٣)، لذلك أوعز بقتله.

وإنه لأمر في منتهى الغرابة، بعد العدد الكبير من المدارس والمساجد والخانقات التي بناها صلاح الدين، واهتمامه بالعلم والعلماء وبعثه نهضة علمية وثقافية واسعة في كل من مصر والشام، أن يُنسب إليه أنه قتل الفكر، وكان سبباً في جموده!

اثر صلاح الدين في تنشيط المذهب السني في بغداد:

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تأثير صلاح الدين في بعث المذهب السني، لم يقتصر على مصر وبلاد الشام، بل امتد إلى الحجاز واليمن اللذين فتحا في السنوات الأولى من حكمه، بقيادة أخيه شمس الدولة تورنشاہ (ت ٥٧٦هـ / ١١٨١م) (٨٤)، الذي أعاد هذه البلاد إلى سلطة

الخلافة العبّاسية الروحية، حيث أمر بأن يخطب في أيام الجُمُع للخليفة العبّاسي، واقتضى نهج أخيه في محاربة المذهب الشيعي.

كما أن تأثير صلاح الدين في إحياء مذهب أهل السنة، وصل إلى بغداد نفسها عاصمة الخلافة العبّاسية، فنجد خلال الفترة التي حكم بها ن الخلافة العبّاسية بفضلها، قد نُفخت فيها روح جديدة، فأكسبتها نشاطاً وقوة لم تألفها منذ فترة طويلة ترجع إلى وفاة الخليفة المعتصم (ت: ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م). حيث أصبح وجود الخلافة وجوداً حقيقياً، بعد أن كان صورياً، وصار للخليفة هبة، ومارس صلاحياته الدستورية بشكل فعّال.

وأصبح بمقدور الخليفة أن يعزل أكبر المتنفذين في القصر من وزراء وكتاب ديوان وغيرهم، يدل على ذلك أن الخليفة المستضيئ بنور الله، استطاع أن يتخلص من قطب الدين قايماز (ت: ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) (٨٥)، وفي العام الذي يليه تمكن من عزل عماد الدين صندل المقتفوي عن الاستدارية، وولى مكانه ابن صاحب هبة الله بن علي (٨٦).

وآخر خليفة عاصره صلاح الدين، هو الناصر لدين الله (ت: ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) الذي خلف المستضيئ، كان أيضاً يتمتع بشخصية قوية، وكانت له هبة وكانت سيطرته على الأمور أكثر من سابقه. يقول فيه السيوطي: «كان الناصر قد ملأ القلوب هبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الأقطار، فأحيا بهيبته الخلافة...» (٨٧)، وبلغ من تمكّنه من السلطة، أن أمر بقتل مجد الدين أبو الفضل بن صاحب (ت: ٥٨٣هـ/ ١٩٨٧)، وهو أستاذ دار الخلافة الذي كان متحكماً في أمور الدولة (٨٨).

وكان أمراً طبيعياً، أن يرافق ازدياد قوة الخلافة، ازدياد قوة المذهب الذي تعتقده وتتبناه وهو المذهب السني، وأن يضعف المذهب المنافس لمذهبها، وهو المذهب الشيعي.

ففي عهد الخليفتين السابقين اللذين عاصرهما صلاح الدين، نجد انحساراً ملحوظاً للمد الشيعي، يدل على ذلك قول الذهبي (ت: ٧٨٤هـ/ ١٣٤٧) «وفي أيامه- المستضيئ بنور الله- اختفى الرفض ببغداد ووهم، وأما بمصر والشام فتلاشى» (٨٩). كما أنه في عهد الناصر لدين الله، تعرّض الشيعة لمضايقات كثيرة، فضعفت شوكتهم، وقوي نفوذ المذهب السني (٩٠).

وخلاصة القول، أن صلاح الدين، كان له الفضل الكبير في بعث ونشر مذهب أهل السنة فقهاً وعقيدة في أغلب البلاد العربية، لاهتمامه الزائد بالفقهاء والإكثار من إنشاء المدارس. ورسم الطريق لمن بعده في كيفية المحافظة على أن تبقى راية الإسلام مرفوعة، وفي كيفية المحافظة على أن يظلّ الدين الإسلامي نقياً خالياً من الشوائب والبدع والهرطقة.

الخاتمة

ظهر صلاح الدين الأيوبي، في عصر كانت فيه الأمة العربية في وضع لاتحسد عليه، من تمزق وضعف، يهددها الخطر الصليبي، الذي كاد أن يأتي عليها. واستطاع بما تمتع به من عبقرية فذة، وميزات قيادية هائلة، أن يجمع شتات هذه الأمة، ويكون قوة كبيرة، استطاع بفضلها أن يحقق انتصاراته على الصليبيين، تلك الانتصارات التي جعلته من الخالدين في التاريخ الاسلامي، وقلّ من كان يضاهيه من حيث التتزه عن الأهواء والمطامع الشخصية، ومن حيث العمل على تقديم الخدمات التي من شأنها أن تسعد الأمة وتنهض بها.

لم يكن صلاح الدين قائداً عسكرياً بارعاً في فنون القتال فحسب، وإنما كان أيضاً سياسياً ماهراً، استطاع أن يحظى بثقة الخليفة الفاطمي (٩١)، رغم العداء المذهبي بينهما، وظلّ على وفاق مع سيّده نور الدين زنكي، مطيعاً له، رغم استفزازات نور الدين له (٩٢)، كما حصل على ثقة الخليفة العباسي، وبقي محافظاً عليها حتى آخر لحظة من عمره، تلك الثقة التي أضفت على حكمه صبغة شرعية، مما جعل الجميع يُقرّ له بالسيادة، والولاء والتبجيل، والاحترام.

ويمكننا اجمال ماكشفت عنه الدراسة من نتائج، فيما يلي:

-ان صلاح الدين كان باعث نهضة فكرية وعلمية كبيرة، انبثقت عن دور العلم الكثيرة التي شيدها، مما كان له أثر في استقطاب كثير من العلماء من مختلف البلدان الاسلامية. كما أن هذه المدارس عملت على تثقيف الناس وتقوية العقيدة في نفوسهم، فأسهمت في تحقيق شيء من الوحدة الفكرية، مما كان له أثر كبير في بناء مجتمع قوي ومتماسك، استطاع أن يتغلب على ما كان يهدده من أخطار داخلية وخارجية على السواء. فأَي انتصار عسكري أو تفوق حربي، لا بد أن يصحبه تقدم علمي، وعقيدة نقيّة راسخة في نفوس ابنائها.

-المدارس التي شُيّدت في عهده، كانت في أغلبها ضخمة وواسعة، تتوفر فيها جميع وسائل الراحة، كما أنّ المدرسين فيها كانوا يتقاضون رواتب عالية، وأن التدريس فيها كان على مذاهب أهل السنة.

-بسقوط الدولة الفاطمية، خسر المذهب الشيعي سنده الكبير، فأبعد من مركز الصدارة ليأخذ مرتبة دنيا، فأخذت الصدارة مذاهب أهل السنّة، ولاسيما المذهب الشافعي. ولذلك يمكننا أن نطلق على صلاح الدين لقب ناصر المذهب السنّي. كما ترتب على زوال الخلافة الفاطمية، أن فقد الجامع الأزهر درجته الأولى بين جوامع القاهرة.

-ان صلاح الدين كان صاحب ثقافة دينية واسعة، اهتم بالعلماء وقربهم اليه، وكان لا يقطع أمراً إلا بمشورتهم.

- لم يكن صلاح الدين يتساهل في أيّ مسألة لها مساس بجوهر عقيدة أهل السنة، لذلك حارب الفلاسفة والمبتدعة، ولم يتهاون معهم.

- تأثير صلاح الدين في بعث المذهب السنيّ لم يقتصر على مصر وبلاد الشام، بل شمل الحجاز واليمن والعراق.

وأخيراً فسيرة صلاح الدين الأيوبي، ستظلّ معيناً لا ينضب لأقلام الباحثين والدارسين، تمدّهم بأمثلة حيّة، من آيات البطولة، والمجد، والفخار.

وحري بنا أن نستطلع تاريخ العظماء من امتنا لنأخذ منه الدروس والعبر، في كيفية مواجهة التحديات الخطيرة التي تواجه امتنا، فنعمل على توحيد كلمتنا، من أجل مقاومة الأخطار المتزايدة، التي تستهدف وجودنا وكياننا.

وأضرع إلى العليّ القدير، أن يُهيّء لهذه الأمة صلاحاً آخر، يعمل على توحيد صفوفها وينقذها من هذه المصائب المتوالية عليها.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

المراجع

- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني (ت: ٦٣٠هـ/١٢٨٨م)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.
- ابن خلكان، أحمد بن محمود (ت: ٦٨١هـ/١٢٨١م)، وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ٨م، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، الدار السعودية، جدة، ١٩٨٥م.
- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي (ت: ١٠٨٩هـ/١٦٨٦م)، شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، ٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن واصل، جمال الدين محمد (ت: ٦٩٧هـ/١٢٦٩م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة المعارف المصرية، القاهرة، ١٩٥٣.
- أبو ريّان، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ط٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣.
- أبو شامة، عبد الرحمن اسماعيل (ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦.
- إيليسيف، نيكيتا، الشرق الاسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٨٦م.
- حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط١، دار الاندلس، بيروت، ١٩٦٧م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، العبر في خبر من غير، تحقيق أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد، ومحيي هلال السرحان، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار

إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٨م.

-العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، مكتبة الاندلس، القدس، ١٩٦١م.

-العسلي، بسام، صلاح الدين الأيوبي، ط٧، دار النفائس بيروت، ١٩٨٧م.

-علي، وفاء محمد، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م.

- غنام، طلعت، الفلسفة الإسلامية، - نشأتها وتطورها ورجالها -، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٦م.

- فتاح، عرفان عبدالحميد، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.

- فخري، ماجد، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤.

-الكيلاني، ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط١، الدار السعودية، جدة، ١٩٨٥م.

- ليونز، ملكوم، صلاح الدين، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.

-المقريزي، أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧م.

- النعيمي، عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٧م)، الدراس في تاريخ المدارس، ط٢، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٨م.

الهوامش:

- (١) نيكيتا ايليسف، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٧٣.
- (٢) كان أكبر شخصيات القصر الفاطمي، ولما رأى خطورة صلاح الدين، عمل على تدبير مؤامرة للقضاء عليه، وكان ذلك في بداية تولي صلاح الدين للوزارة، ولكن صلاح الدين علم بذلك، فتمكن من قتله. ولما ثار أتباعه سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م، قاتلهم صلاح، وتمكن من الانتصار عليهم بعد معركة ضارية، ومنذ تلك اللحظة ضعف نفوذ الخليفة الفاطمي. علي بن أبي الكرم بن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٨٨م)، الكامل في التاريخ، ١٢م، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ج ١١، ص ٣٤٥، ٣٤٦.
- (٣) وضع رؤوس هذه المؤامرة خطة محكمة، استهدفت القضاء على صلاح الدين، وإعادة الخلافة الفاطمية، ولكي يتمكنوا من إنجاح مخططهم تأمروا مع الصليبيين، ولكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة، فقبض على مدبريها وقتلهم، وكان ذلك في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣. ويرجع الفضل في كشف هذه المؤامرة إلى الفقيه ابن نجا. جمال الدين محمد بن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٦٩م). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٥م، تحقيق جمال الدين محمد الشيال، وزارة المعارف المصرية، القاهرة، ١٩٥٣، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٦.
- (٤) كان كنز الدولة والياً على أسوان، فقام ببسط سيطرته على أغلب صعيد مصر، وأعلن تمرده على صلاح الدين، ونادى بإرجاع الخلافة الفاطمية، وكان ذلك في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م. ولكن هذه الثورة قمعت بشدة على يد الجيش الذي أرسله صلاح الدين بقيادة أخيه العادل. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٦-١٧.
- (٥) عبدالرحمن اسماعيل أبو شامة، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٥.
- (٦) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤م، ط ١، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٧م، ج ٤، ص ١٨٩، ١٩١، ١٩٢.
- (٧) أحمد بن علي المقرئ، (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقرئية)، ط ٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧، ج ٢، ص ٣٦٣.
- (٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥٤.
- (٩) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٦٣.

- (١٠) نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة، ط١، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٩٩١، ص٤٢٨، نقلاً عن خطط الشام، ج٤، ص٣٩.
- (١١) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ٦م، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ج٦، ص٥٤.
- (١٢) أبو شامة، الروضتين، ج١، ق١، ص٤٨٦.
- (١٣) المقرئزي، الخطوط، ج٢، ص٣٦٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٨٥.
- (١٤) أبو شامة، الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٨٨.
- (١٥) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٠٠.
- (١٦) المصدر نفسه، ص٣٦٥.
- (١٧) عبد القادر بن محمد النعمي، (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٧م)، الدارس في تاريخ المدارس ٢م، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٨، ج١، ص٣٣١.
- (١٨) المصدر نفسه، ج١، ص٤٤٨.
- (١٩) نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، ص٤٢٨.
- (٢٠) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٣٤.
- (٢١) أبو شامة، الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٤.
- (٢٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص٢٣٠، وعارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٦١، ج١، ص١٧٩.
- (٢٣) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ص١٨٠.
- (٢٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص٥٤.
- (٢٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٩٨.
- (٢٦) النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٥٨.
- (٢٧) أبو شامة، الروضتين، ج١، ق١، ص٤٨٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٨٥.
- (٢٨) عبد القادر النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٢١٦.
- (٢٩) أبو شامة، الروضتين، ج١، ق١، ص٤٨٧.
- (٣٠) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٦٥.

- (٣١) أبو شامة، الروضتين، ج١، ق٢، ص٥٤٥.
- (٣٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٤.
- (٣٣) نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم، ص٤٣٠.
- (٣٤) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٦٧.
- (٣٥) المصدر نفسه، ص٣٦٨.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص٣٦٦.
- (٣٧) عبدالقادر النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٩٩.
- (٣٨) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٣٦٥.
- (٣٩) المصدر نفسه، ص٣٦٧.
- (٤٠) حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام، ج٤، ص٦٠٨.
- (٤١) وفاء محمد علي، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦، ص٥٦.
- (٤٢) أبو الفلاح عبدالحى بن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٨٦م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٤، ص٢٩٨.
- (٤٣) جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط٢، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٨، ج٤، ص٢٢.
- (٤٤) ملكوم ليونز، صلاح الدين، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨، ص٦١.
- (٤٥) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، ط٤، تحقيق أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ج٣، ص١١٢.
- (٤٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٩٨.
- (٤٧) جمال الدين الشيال، مفرج الكروب، ج١، ص١٩٨.
- (٤٨) أبو شامة، الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٧٣.
- (٤٩) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ص١٧٨. وأبو شامة، الروضتين، ج١، ص٢٠٦.

- (٥٠) نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم، ص ٤٦٢.
- (٥١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٩٨.
- (٥٢) نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم، ص ٤٥٨.
- (٥٣) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٤٠٧.
- (٥٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٤.
- (٥٥) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٢١٨، ٢١٩، ٥٣٣.
- (٥٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٥.
- (٥٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٤م، تحقيق بشار عواد، ومحبي هلال السرحان، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، ج ٢١، ص ٢٨٢.
- (٥٨) ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس، ط ١، الدار السعودية، جدة، ١٩٨٥، ص ٢٢٤، نقلاً عن ابن الأثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٤.
- (٥٩) أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ١٢٥.
- (٦٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٥.
- (٦١) ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ٢٤٤.
- (٦٢) أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٥٨.
- (٦٣) أحمد بن محمود بن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨١م)، وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ٨م، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥، ج ٣، ص ٤٩٧.
- (٦٤) ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ٢٤٥، نقلاً عن مرآة الزمان لسبط بن الجوزي، ص ٥١٥.
- (٦٥) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦٦٧.
- (٦٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١.
- (٦٧) المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٣٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١١٥.
- (٦٨) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ق ٢، ص ٦٧١.
- (٦٩) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٠.
- (٧٠) أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ١٣٤.
- (٧١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٠.

- (٧٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٢٩٣.
- (٧٣) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٢٣.
- (٧٤) المصدر نفسه.
- (٧٥) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٩٩.
- (٧٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٩.
- (❖) ولد في سُهرُورْد في شمال غرب إيران، ثم انتقل إلى مراغة، ومنها إلى أصفهان، ثم إلى بلاد الأناضول وديار بكر، وأخيراً استقر به المقام في حلب، أشهر شيوخه، مجد الدين الجيلي، وظهير الدين القادي، وفخر الدين المارديني (ت ٥٩٤هـ). كان شديد الذكاء فصيحاً، بارعاً في الجدل، انضم إلى جماعات الصوفية، وأحب الوحدة، عرف عنه كثرة تهوُّره واستهتاره، وعدم اكترائه بالأعراف والاعتبارات الاجتماعية. عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، ط ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ص ٢٣٢-٢٣٥.
- (٧٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٩.
- (٧٨) يقول محمد كرد علي: «... وربما كانت هذه الغلطة الفظيعة الوحيدة التي عدت على صلاح الدين، لأنه بقتله قتل الحكمة، ومنذ أهملت العلوم الفلسفية في الإسلام، أخذ مستوى العقل في علماء المسلمين يضعف». ويقول محمد سيد كيلاني: «منذ هذه الفترة، اختفى التفكير الحر من الوجود، فأصبحت العقول بالجمود، واستبدت بها الأوهام». نعمان سليمان، منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة، ص ٥٢٠.
- (٧٩) عرفان فتاح نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، ص ٢٢٨. وطلعت غنام، الفلسفة الإسلامية، نشأتها وتطورها ورجالها، ص ٥٨.
- (٨٠) ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٤٠٤. وعرفان فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، ص ٢٣٦.
- (٨١) محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام - المقدمات، علم الكلام، الفلسفة الإسلامية، ط ٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ٤٠٩.
- (٨٢) نعمان سليمان، منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم، ص ٥٢١.
- (٨٣) عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، ص ٢٤٥.
- (٨٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٣٩٦.
- (٨٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٤٣٤.
- (٨٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٧٦.

- (٨٧) جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٤٥٠.
- (٨٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١ ص ٥٦٢.
- (٨٩) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٣، ص ٦٧. والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٥٤٥.
- (٩٠) الذهبي، المصدر نفسه، ص ٣٥.
- (٩١) وفاء علي محمد، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، ص ٤٥.
- (٩٢) يقول صلاح الدين بعد وفاة نور الدين: «والله لقد صبرت منه على مثل حَزِّ المدى ووخز الإبر، وما قدر أحد من أصحابه، أن يجد عليّ ما يعتده ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً، أن يجد لي هفوة يعتدها عليّ قلم يقدر، ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يُصبر على مثلها، لعلّي أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط». أبو شامة، الروضتين، ج ١ اق ١ ص ٤٤٢.